

النبر والتنغيم في اللغة العربية عند اللغويين العرب القدامى والمحدثين

د. بلقاسم دفة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة بسكرة

ملخص

النبر والتنغيم من مباحث علم الأصوات التشكيلي، وهو يدرس النظم الصوتية للغة معينة كما ينطقها أهلها في ممارساتهم اليومية. وإن النبر والتنغيم لا ينفصلان عن بعض، وإن الأداء الكلامي هو المتحكم فيهما، وعلى أساسهما يستطيع المتكلم أن يعبر عما في نفسه للمتلقي. وقد تناولهما اللغويون العرب بوصف عام، وإن لم يدرسوا دراسة تطبيقية.

المقدمة

درست في هذا البحث ظاهرتي النبر والتنغيم في اللغة العربية عند اللغويين العرب القدامى والمحدثين، وذلك بهدف التوصل إلى وجود إرهاصات وبدايات أولية تثبت انشغال العلماء الأوائل بهذه الدراسة الصوتية.

وجاءت الدراسة موزعة على النقاط الآتية:

- أهمية الصوت اللغوي.
- مفهوم النبر والتنغيم لغة واصطلاحاً.
- أنواع النبر في اللغة العربية.
- مفهوم التنغيم لغة واصطلاحاً.
- الفرق بين مصطلحي النغمة والتنغيم.
- أقسام التنغيم في اللغة العربية.
- آراء اللغويين القدامى والمحدثين حول ظاهرتي النبر والتنغيم.
- بالإضافة إلى خاتمة موجزة ذكرت فيها أهم النتائج المتوصل إليها.

توطئة: أهمية الصوت اللغوي

تتصف اللغات بادئ ذي بدء بكونها كلاماً منطوقاً يتداول مشافهة، فلقد عرف الإنسان الكلام المنطوق قبل أن يبتكر الكتابة بأحقاب طويلة، لا ندري مداها في القدم.

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد أن اللسانيات الحديثة أعادت الاهتمام للغات المنطوقة، إذ لوحظ تركيز الدرس اللغوي والنحوي القديم على الآثار المكتوبة والمدونة، على الرغم من قصور الكتابة عن تصوير اللغة المنطوقة تصويراً دقيقاً.⁽¹⁾

إن جل علماء اللغة المحدثين يرون أنه من الضروري أن تأتي دراسة الكلام المنطوق في المرتبة الأولى. أما اللغة المكتوبة فتأتي في المرتبة الثانية، لأن اللغة الشفوية هي الأصل، بل هي تمثيل للكتابة؛ فكل اللغات بدأت أولاً منطوقة. وكما

يقول جون ليونز (J. Lyons): إن العديد من اللغات لم تكن مكتوبة من قبل البتة، ثم خضعت للكتابة في عهد قريب من هذا العصر⁽²⁾.

ومهما بلغت الكتابة في تصويرها للنطق، فإنها ولا شك لا تستطيع نقل تعبيرات الوجه، وحركات الجسم، ونغمات الأصوات، وسائر السمات السيميائية للكلام. ولا يعني هذا بحال من الأحوال التقليل من شأن الكتابة وقيمتها العلمية، إنما ينبغي إعادة اللغة مع طبيعتها الشفهية، وعدم النظر إليها على أنها مساوية للمدونات المكتوبة.

فاللغة رمز التعبير ووسيلته، وهي الأداة التي تنتقل الأفكار. ولا ريب أن تلك الأفكار تنتقل إليها في قوالب خاصة هي الألفاظ. وهذه الألفاظ يختارها كل مجتمع وكل فرد بحسب حاجاته وأحواله الاجتماعية؛ فأهل البادية يميلون إلى خشونة اللفظ بسبب طبعهم، وأهل المدينة تحمل ألفاظهم سمات مدنيته من عذوبة ورقة.

وأريد أن أتحدث في هذا البحث عن موضوع النبر والتنغيم، وهو من مباحث علم الأصوات التشكيلي (الفونولوجي)، أو علم الأصوات الفيزيائي. وعلم الأصوات كما يعرفه ترويتسكوي هو العلم الذي يدرس الجانب المادي للأصوات المتمثلة في التخاطب الإنساني،⁽³⁾ وبضيف علم النطق إلى مهمة علم الأصوات جميع الظواهر الصوتية الدالة في اللغة، كالتنغيم والنبر⁽⁴⁾. وهو يدرس النظم الصوتية للغة معينة، كما ينطقها أهلها في ممارستهم اليومية. فهو يتضمن البحث عن الذبذبات والموجات الصوتية التي يحملها الهواء بعد تأثيره في أعضاء النطق وخروجه منها ليصل إلى أذن السامع.

ولاريب أن الصوت في سياقه يختلف عن الصوت المجرد من حيث كمية الجهد اللازمة لإنتاجه، ومن حيث تأثيره بالأصوات السابقة عليه، واللاحقة به. ولهذا التأثير قواعد عامة في كل اللغات، بحيث نجد أن صوتاً كالنون مثلاً في اللغة العربية قد ينطق على عدة صور بحسب الصوت التالي له. وكل هذه الصور أعضاء لفونيم (phoneme) واحد، هو صوت (النون). وكلمة (فونيم) معناها: الوحدة الصوتية التي تأخذ عدة صور باختلاف المواضع المؤثرة فيها.⁽⁵⁾

وأتحدث -الآن- عن مفهوم النبر من حيث اللغة والاصطلاح.

مفهوم النبر لغة واصطلاحاً

أبدأ بادية ذي بدء بمفهوم النبر لغة، ثم أعرض إلى مفهومه اصطلاحاً.

أ- النبر لغة: من نبر، يقال: نبرت الشيء أنبره: رفعت. ومنه سمي المنبر لارتفاعه. والنبر بالكلام: ارتفاع الصوت.⁽⁶⁾

وقال ابن منظور: "النبر بالكلام: الهمز، قال: وكل شيء رفع شيئاً، فقد نبره. والنبر: مصدر نبر الحرف ينبره نبراً همزاً".⁽⁷⁾

يوضح ابن منظور: الهمز بأنه الغمز والضغط، ومنه الهمز من الكلام، لأنه يضغط. وفسر النبر بارتفاع الصوت، أي عده رديفاً للهمز.⁽⁸⁾

ب- النبر اصطلاحاً: النبر (l'accentuation): هو أحد الفونيمات التي لها دور أساس في مبنى الكلمات في اللغة العربية، وفي بعض اللغات، ولها دور في معناها أيضاً. ويكون بتقوية صوت في كلمة معينة ليرتفع على غيره من أصوات الكلمة نفسها بأداة من أدوات الضغط⁽⁹⁾. وينتج عند مرور الهواء في الحنجرة محدثاً اهتزازاً في الأوتار الصوتية يتسم بالقوة و الارتفاع في حدود الكلمة الواحدة، فيحولها في بعض اللغات من الجملة الاسمية إلى الفعلية أو العكس، وتعد اللغة الإنجليزية من أفضل اللغات تمثيلاً.

ويعرف النبر- أيضاً- بأنه إبراز أحد مقاطع الكلمة، أو هو " وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام، ويكون نتيجة عامل أو أكثر من عوامل الكمية والضغط والتنغيم... وربما كان ذلك لأن، النبر يعرف بدرجة الضغط على الصوت أكثر مما يعرف بأي شيء آخر، أو لأن الضغط في صورتيه؛ صورة القوة وصورة النغمة يتسع مجال تطبيقه على النبر أكثر مما يتسع مجال العوامل الأخرى".⁽¹⁰⁾

ويتضح مما سبق أن النبر: موقعية تشكيلية تتعلق بالموقع في الكلمات أو الجمل.

والنبر بتعبير آخر: هو الضغط على مقطع خاص من كل كلمة في الجملة، يجعله المتكلم بارزاً أوضح في السمع مما عداه من مقاطع الكلمة. وهذا الضغط هو الذي يسميه اللغويون المحدثون "النبر".⁽¹¹⁾ فالنبر إذن هو نشاط ذاتي للمتكلم ينتج عنه نوع من الظهور أو البروز لأحد الأصوات أو المقاطع بالنسبة لما يحاذيه⁽¹²⁾.

فالمقطع المنبور ينطقه المتكلم بجهد أقوى من المقاطع المجاورة له، لأن النطق حين النبر يلزمه نشاط أكبر في أعضاء النطق كلها في آن واحد. وينتج عن ذلك أن الصوت يغدو مرتفعاً وواضحاً في السمع.⁽¹³⁾

ولذلك يمكن القول: إن النبر يراد به زيادة في نبر صوت أو مقطع من كلمات الجملة لإظهار أهميتها ودلالاتها

أنواع النبر في اللغة العربية

تشير الدراسات الحديثة التي أجراها بعض العرب المعاصرين وبعض المستشرقين إلى أن النبر في العربية الفصحى المسموعة، ولا سيما في قراءة القرآن الكريم له موضع ثابت يرتبط بعدد المقاطع ونوعها. ويرى تمام حسان أن النبر في الكلمات العربية من وظيفة الصيغة الصرفية، فصيغة (فاعل) يقع النبر فيها على الفاء (فا)، وصيغة مفعول يقع النبر فيها على العين (عو)، وصيغة (مستفعل)، يقع النبر فيها على التاء (تف). أما نبر الجمل فليس له ارتباط بالصيغ الصرفية، لأنه نبر ذو وظائف نحوية، بل إنه لا يرتبط بها، وإن وافقها في الظاهر⁽¹⁴⁾. فنبر السياق هذا، إنما يكون من وظيفة المعنى العام، أي أنه نبر دلالي. ومن هنا يتضح أن النبر في اللغة العربية نوعان:

1- نبر الصيغة (الصرفي) 2-نبر السياق (الدلالي).

أولاً: نبر الصيغة (الصرفي): وينقسم نبر الصيغة أو النبر الصرفي- بحسب درجة الصوت - إلى قسمين: أولي وثانوي. وإنما سمي الأولي كذلك، لأنه أقوى من الثانوي، ولأن موضع النبر الثانوي إنما تقاس مسافته في المقاطع بالنسبة للأولي.

أ- النبر الأولي

- 1- يقع على المقطع الأخير في الكلمة، في مثل: "نستعين" و"ذاكرت".
- 2- ويقع على ما قبل الآخر، في مثل: تعلم، جاهد، يكتب، كما يقع على المقطع الثالث من الآخر، في مثل: ذهب، سمع. وعلى المقطع الرابع من الآخر، في مثل: سمكة.
- 3- يقع على المقطع الذي يسبق ما قبل الآخر، إذا كان الآخر يقع مع ما قبله، نحو: علمك، حاسبك.

وما ينبغي الإشارة إليه-هنا- إلى أن النبر لا يقع على مقطع سابق لهذا الأخير.

بج- النبر الثانوي:

إن النبر الثانوي يوجد في الكلمات ذوات المقطعين فأكثر. فالمقطع المنبور نبرا ثانويا يقع على مسافات محددة من النبر الأولي، وذلك كالآتي:

1- يقع على المقطع الذي قبل المقطع المنبور نبرا أوليا، إذا كان النبر الثانوي طويلا، نحو: مدهامات، ضالين.

2- ويقع على المقطع الذي بينه وبين المنبور نبرا أوليا مقطع آخر، إذا كان المنبور الثانوي يكون مع الذي يفصل بينه وبين المنبور الأولي أحد الأنساق الآتية:

- مقطع متوسط + آخر متوسط، نحو: سمعناه، مستفقين، صاحبناهم.

-مقطع متوسط + مقطع قصير، نحو: لازمهم، مستعين.

3- ويقع على المقطع الثالث قبل المنبور نبرا أوليا، إذا كانت الثلاثة السابقة لهذا المنبور الأولي تكون منسقا في صورة (متوسط + قصير + قصير أو متوسط)، مثل: مستحقون، يستريحون، ما شاهدناهم.

ويلحظ أن النبر الثانوي لا يقع على المقطع الرابع السابق للمنبور الأولي في الكلمة.

ثانيا: نبر السياق (النبر الدلالي):

نبر السياق (الدلالي) مستقل عن النبر الصرفي (نبر الصيغة). والفرق بينهما أن نبر السياق يمكن تشخيصه ووصفه، على عكس النبر الصرفي، حيث إنه إما أن يكون نبرا تأكديا، أو نبرا تقريريا. ويمكن تلخيص الفرق بينهما في أن دفعة الهواء وارتفاع الصوت في النبر الثانوي أقوى منها في التقريري.

والآن نتحدث عن مفهوم التنغيم (Intonation) في اللغة والاصطلاح، ونبدأ بالمفهوم اللغوي، ثم الاصطلاحي.

أ - مفهوم التنغيم لغة:

التنغيم في اللغة: الكلام الخفي، تقول: نغم، ينغم، نغماً. والنغمة: جرس الكلمة وحسن الصوت في القراءة وغيرها، وهو حسن النغمة، والجمع نغم⁽¹⁵⁾، قال ساعدة بن جؤية الهذلي:

ولو أنها ضحكك فشمع نغمها رعرش المفاصل، صلبه متحنب⁽¹⁶⁾

ويأتي- كذلك- الجمع نغم، هذا قول اللغويين، وعند ابن سيده أن «النغم» اسم للجمع، كما حكاه سيبويه من أن حلقاً وفلكاً اسم لجمع حلقة وفلكة، لاجمع⁽¹⁷⁾.

ب - وفي الاصطلاح: يعرف التنغيم "بأنه ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام"⁽¹⁸⁾.

إن التنغيم هو المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (الصعود) والانخفاض (الهبوط) في درجة الجهر في الكلام. وهذا التغير في الدرجة يعود إلى التغير في نسبةذبذبة الوترين الصوتيين، هذه الذبذبة التي تحدث نغمة موسيقية يطلق عليها مصطلح (التنغيم)⁽¹⁹⁾. ولذلك فالتنغيم يدل على العنصر الموسيقي في الكلام، أي يدل على (لحن) الكلام. ونحن عندما نتعلم لغة أجنبية نفرض عاداتنا التنغيمية على اللغة الجديدة، ويصعب علينا أن نتعلم اللحن الجديدة، بل إن التنغيم يختلف من فرد إلى آخر بين متكلمي لغة من اللغات شيئاً من الاختلاف، وإنه يختلف أكثر من هذا من إقليم إلى آخر، فغالبا ما يميز كل إقليم لحن كلام⁽²⁰⁾.

والفرق بين "النغمة" و"اللحن" أن "النغمة" يتصف بها مقطع من المقاطع فيوصف المقطع من الكلمة بأنه ينطق بنغمة صاعدة، وذلك بأنه ينطق بنغمة "هابطة" أو "مستوية". أما اللحن فهو ما ينشأ عن ترتيب النغمات المتتابعة في المجموعة الكلامية⁽²¹⁾.

إن التغيرات الموسيقية في الكلام التي تدعى "التنغيم" تستخدمها اللغات المختلفة استخدامات مختلفة. فعن طريق هذه التغيرات يتوصل العديد من اللغات إلى التعبير عن الحالات النفسية المختلفة كالرضا والغضب، والخوف والاحتقار إلى آخره⁽²²⁾.

إن التنغيم (intonation) هو توالي درجات صوتية مختلفة في أثناء النطق مثل اختلاف التنغيم في جملة: لا ياسيدي. للدلالة على النفي أو التهكم أو الاستفهام،

وغير ذلك من الدلالات. وهو الذي يفرق بين الجمل الاستفهامية والخبرية في مثل: جاء أخوك. فإننا نلاحظ نغمة الصوت تختلف في نطقها للاستفهام عنها في نطقها للإخبار.

فالتنغيم يقوم في لغات عديدة بدور مورفولوجي، إنه يقوم بنفس الدور الذي تقوم به المورفيمات، فنجد في بعض اللغات صيغتين متماثلتين من الناحية الصوتية، ولكن كل منهما تنطق بنغمة مخالفة؛ فيكون لكل منهما معنى يخالف الآخر. وقد ذكر فندريس (vendryes) أن أهل اللغة الفهلوية في إفريقيا الغربية إذا نطقوا -مثلاً-: (miwarata) بنغمة على الفتحة الأخيرة مماثلة نغمة كل الجملة كان معناها: أقتل أو سأقتل في الحاضر الدال على العادة. أما إذا نطقت الفتحة الأخيرة بنغمة مرتفعة صار معنى الجملة: لن أقتل. (23)

والنبر أو الارتكاز قد يكون كذلك مورفيما عندما يستخدم استخداما وظيفيا للتفريق للتفريق بين الدلالات والمباني. والسكت أو الوقف يعد هو الآخر مورفيما مهما، والصمت مثله يؤدي ما تؤديه النغمة أو النبر أو الارتكاز، وغير ذلك من المورفيمات. وبإمكاننا إدراك دلالات السكت أو الوقف أو الصمت بوضوح من ملاحظة لتلاوة القرآن الكريم.

الفرق بين النغمة والتنغيم

يفرق بعض العلماء بين مصطلحي "نغمة" و"تنغيم" باعتبار اختلاف درجة الصوت. فقد عرف الفيلسوف أبو نصر الفارابي النغم بقوله: "وأعني بالنغم الأصوات المختلفة بالحدة والثقل التي تتخيل كأنها ممتدة" (24). ويقول صاحب كشف الظنون: "والنغمة صوت واحد لابتث زمانا ذو قدر محسوس في الجسم الذي فيه يوجد" (25). ويقول في موضع آخر: "وهو في عرفهم أنغام مختلفة الحدة والثقل رتبت ترتيبا ملائما، وقد يقال: وقرنت بها ألفاظا دالة على معان محركة للنفس تحريكا ملذا. وعلى هذا ما يترنم به الخطباء والقراء يكون لحنا..." (26).

وبتعبير أحد المحدثين أن النغمة هي: "الصوت الناتج عن صدور موجة صوتية" (27).

وهذا التعريف يشمل أصوات الإنسان وأصوات الآلات. فالآلات هي الأخرى صوتها ناتج عن صدور موجه صوتية. وللنغمة الواحدة درجة معينة وارتفاع معين.

ويفرق أحد الباحثين بين نوعين من اختلاف درجة الصوت، هما:

أ - نوع يسمى بالتنغيم (intonation): وهو اجتماع نغمات ضمن مجموعة من الكلمات على مستوى الجملة أو العبارة أو مجموع الكلمات.

ب - نوع يسمى بالنغمة أو التون (Tone): وهو الأثر الناتج من ازدياد عدد الذبذبات أو انخفاضها على مستوى الكلمة.⁽²⁸⁾

ويرى أحمد مختار عمر أن معظم اللغات البشرية يمكن أن تسمى لغات تنغيمية (intonation languages)، لأنها تعتمد التنوعات الموسيقية في الكلام بطريقة تميز فيها بين المعاني. وإلى اختلاف التنغيم يعود الفضل في أننا يمكن أن نعبر عن مشاعرنا، ويمكن في معظم اللغات أن تغير الجملة من خبر إلى استفهام إلى تأكيد إلى تعجب دون تغيير في شكل الكلمات التي تُولف الجملة، ومع تغيير فقط في نوع التنغيم⁽²⁹⁾.

ومما يلحظ أن الفصل بين النغمة والتنغيم يبدو عسيرا أحيانا، وبخاصة فيما يتصل بالكلمات المفردة التي تستخدم كجواب في العربية، نحو: نعم، أجل، لا، كما أن كل لغة من اللغات لها نماذج متميزة من التنغيم بالنسبة لكل طائفة من الكلمات أو الجمل.

وكما يتنوع التنغيم بين اللغات، يوجد تنوع -أيضا- بين الأفراد داخل اللغة الواحدة. ولهذا من الأحسن ألا توضع قواعد دقيقة وصارمة تحدد طريقة النطق. فالتنغيم إذن هو موسيقى الكلام⁽³⁰⁾. وهو عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية الإيقاعية في تركيب معين.⁽³¹⁾

أقسام التنغيم في اللغة العربية

التنغيم في اللغة العربية الفصحى غير مدروس، ومن ثم تخضع دراستنا إياه في الوقت الحاضر لضرورة الاعتماد على العادات النطقية في اللهجات العربية.

ويرى تمام حسان أن النظام التنغيمي للفصحى يمكن تقسيمه إلى قسمين مختلفين: أولهما: شكل نغمة آخر مقطع وقع عليه النبر في الكلام. وثانيهما: هو المدى الذي يبين أعلى نغمة وخفضها في الصوت سعة وضيقا. فأما من حيث وجهة النظر الأولى فينقسم نظام تنغيمي الفصحى إلى لحنين:

الأول: وينتهي بنغمة هابطة على آخر مقطع وقع عليه النبر. والثاني: ينتهي بنغمة صاعدة على المقطع المذكور. وأما من حيث وجهة النظر الثانية فينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي: الواسع، والمتوسط، والضيق.

فالواسع أو الإيجابي فهو الذي تهتز فيه الأوتار الصوتية، ويعلو فيه الصوت، والمتوسط أو النسبي هو أقل تطلبا لكمية الهواء وما يصحبها من علو الصوت. وأما الضيق أو السلبي فهو الذي ينخفض فيه الصوت، ويستعمل في العبارات الحزينة واليائسة، وعبارات الأسف والتحسر، فإذا كان الكلام تمنيا أو عتابا فالمستعمل الصاعد.

وأما الاصطلاحان الأول والثاني فلا يصفان إلا نغمة آخر مقطع وقع عليه النبر في الجملة. فإذا كان المقطع هابطا من أعلى إلى أسفل فذلك هو الشكل الأول للحن العربي، وإذا كان صاعدا من أسفل إلى أعلى فهو الشكل الثاني. ومع أن الشكل الأول هو المستعمل في جمل النفي والإثبات والشرط والدعاء، وكل الجمل حتى إنه ليشارك الثاني في مجاله وهو الاستفهام والعرض فيشمل الاستفهام بالظروف ونحوها دون أداتي الاستفهام (هل والهمزة)⁽³²⁾.

ويتضح أن الشكل الثاني يكون قاصرا على الاستفهام بهاتين الأداتين (هل والهمزة) فقط. وهذا النوع من أنواع الاستفهام هو الذي ينتهي بنغمة صاعدة. ولنقارن بين الجملتين الآتيتين: هل حضر محمد؟ ومتى حضر محمد؟.

يكون الاختلاف في النغمة الأخيرة في الجملتين، ولا تصعد النغمة الأخيرة مع الظروف إلا عند إرادة التعبير بجملة الاستفهام عن معان إضافية كالدشة أو نحوها، وفي هذه الحالة نجد الجملة: متى حضر محمد؟ تنتهي بنغمة صاعدة.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن هبوط النغمة أو صعودها لا يكون إلا متما شيا مع موقع النبر في الكلام. فالعلاقة الوثيقة بين النبر والتنغيم لا يمكن انفكاكها.⁽³³⁾

وإذا وقف المتكلم قبل تمام المعنى على نغمة مسطحة؛ لا هي بالصاعدة ولا بالهابطة. ومن أمثلة ذلك الوقف عند كل فاصلة في الآيات الكريزمات الآتية:

"فإذا برقَ البصرُ، وحَسَفَ القمرُ، وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ، يقول الإنسانُ يومئذٍ أين المفرُ..."⁽³⁴⁾ ؟

فالوقف على كلمة "البصر" و"القمر" أولا و"القمر" ثانيا وقف على معنى لم يتم، فتظل نغمة الكلام مسطحة دون صعود أو هبوط. وأما الوقف على "المفر"

فالنغمة فيه هابطة، لأنه وقف عند تمام معنى الاستفهام بغير الأداة، أي الاستفهام بالظرف.

وكثيرا ما يرى المتكلم أن المعنى يستلزم تقسيم الجملة تنغيميا بحسب الطرق الإلقائية إلى جمل تنفسية (وقفية)، فيقف حينئذ عند كل جملة منها بنغمة مسطحة على نحو ما حدث في الآيات المذكورة آنفا.

آراء العلماء القدامى والمحدثين حول ظاهرتي النبر والتنغيم في العربية

لقد دار جدل المشتغلين بالدراسات الصوتية حديثا حول النبر والتنغيم، مفاده هل النبر والتنغيم من الظواهر الصوتية التي اهتم بها علماء العرب القدامى؟ وهل عالج القدامى النصوص معالجة تطبيقية تؤكد وجود ظاهرتي النبر والتنغيم في اللغة العربية؟.

أقول: إن العديد من الباحثين اللغويين المحدثين يتفقون على أن ظاهرتي النبر والتنغيم بعدهما مظهرا صوتيا يشتركان بين جميع اللغات. ومن ثم فيبرزان عن طريق الأداء الصوتي في اللغة العربية، إلا أن القدامى لم يتناولوا هذه الظاهرة الصوتية تناولا ذابالا. وفي تأكيد هذه المسألة أعرض إلى ذكر مقولة هنري فليش الذي يرى أن نبر الكلمة كان مجهولا لدى اللغويين العرب، لأنهم لم يذكروه بين مصطلحاتهم.⁽³⁵⁾

ويصرح برجستراسر قائلا: إننا نعجب كل العجب من أن اللغويين والنحويين العرب القدامى لم يذكروا النغمة ولا النبر أصلا، غير أن أهل الأداء والتجويد بخاصة رمزوا إلى ما يشبه التنغيم.⁽³⁶⁾

أما إنكار هنري فليش معرفة اللغويين العرب للنبر بإدعاء جهلهم لمصطلحه فإنكار مردود، لأنهم يعدون النبر والهمز شيئا واحدا. فقد جاء في لسان العرب أن "النبر بالكلام: الهمز، قال: وكل شيء رفع شيئا، فقد نبره، والنبر: مصدر نبر الحرف ينبره نبرا همزه".⁽³⁷⁾

والحقيقة أن اللغويين العرب القدامى لم يدركوا تمام الإدراك النبر بأنه ضغط على بعض مقاطع الكلام، غير أن ابن جني لاحظ أثره في تطويل بعض حركات الكلام، ويسميه "مطل الحركات"، حيث يقول: "وحكى الفراء عنهم: أكلت لحما شاة، أراد لحم شاة، فمطل الفتحة، فأنشأ عنها ألفا... وكذلك الحركات عند التذكر يمطلن حتى يفين حروفا. فإذا صرفها جرين مجرى الحروف المبتدأة توام، فيمطلن أيضا حينئذ،

كما تمطل الحروف، وذلك قولهم عند الذكر مع الفتحة في الوقت، قمتا، أي أنت قمت يوم الجمعة، ونحو ذلك، ومع الكسرة أنتي، أي أنت عاقلة، ونحو ذلك، ومع الضمة، قمتو، في قمت إلى زيد، ونحو ذلك⁽³⁸⁾.

فالفتحة متى أشبعت صارت ألفا، والكسرة متى أشبعت صارت ياء، والضمة متى أشبعت صارت واوا، أي أن الحركات عند الإشباع تزداد فيها كمية الصوت. فالإشباع بنية موسيقية في الكلام تحدث بنغمة قد تطول وقد تقصر.

وموضوع الإشباع الذي دعاه ابن جني "مطل الحركات"، قد أشار إليه سيبويه⁽³⁹⁾. وهو بمعنى تقوية الصوت في المجهور، وإضعافه في المهموس. وهو يدل على فهم اللغويين القدامى لمسألة النبر أو الضغط على حركات الكلمة لتزداد كميتها الصوتية، فتصير الفتحة ألفا والكسرة ياء، والضمة واوا.

وبإمكاننا أن نقول: إن الإشباع يعد عنصرا موسيقيا في الكلام، يحدث نغمة، قد تطول، وقد تقصر.

كما أن إثارة العرب الإعراب على المجاورة لا يخرج عن هذا الموضوع. فقد جاء عن العرب قولهم: جحرُ ضبٍ خربٍ، فأغنت عنهم قرينة التبعية، وهي معنوية عن قرينة المطابقة في العلامة الإعرابية وهي لفظية، وكان الداعي إلى ذلك داعيا موسيقيا جماليا هو المناسبة بين المتجاورين في الحركة الإعرابية، وقد سماه النحاة المجاورة⁽⁴⁰⁾. ولاريب أنه مظهر من مظاهر التنعيم في اللغة العربية.

ولا شك أن الندبة - كذلك - من مسائل التنعيم، فقد ورد عن سيبويه قوله: "اعلم أن المندوب مدعو، ولكنه متفجع عليه فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف، لأن الندبة كأنهم يترنمون فيها، وإن شئت لم تلحق كما لم تلحق في النداء"⁽⁴¹⁾.

ويقول في موضع آخر: "... والندبة يلزمها واو، لأنهم يخلطون ويدعون ما قد فات وبعد عنهم، ومع ذلك أن الندبة لأنهم يترنمون فيها، فمن ثم ألزموها المد، وألحقوا آخر الاسم المد مبالغة في الترتم"⁽⁴²⁾.

ويقول ابن يعيش في شرح المفصل: "اعلم أن المندوب مدعو... ولما كان مدعوا بحيث لا يسمع أتوا في أوله (بيا أو وا) لمد الصوت، ولما كان يسلك في الندبة والنوح مذهب التطريب زادوا الألف آخرًا للترتم"⁽⁴³⁾.

والجلي مما سبق أن مصطلح "الترنم"، و"مد الصوت"، و"التطريب"، جميعها مصطلحات تدل على التنغيم، لأن الندبة توجه للمتفجع عليه للإخبار بعظمة المندوب وإبراز أهميته.

وهناك إشارات أخرى في كلام العرب، تدل على بعض معاني التنغيم. وكان ابن جني أحد الذين التفتوا إلى ذلك، إذا يقول: "وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل. وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها. وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملت. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوة اللفظ بـ "الله" في هذه الكلمة. وتتمكن من تخفيف اللام، وإطالة الصوت بها، أي: رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً! وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك. وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق، قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك". (44)

فعلى هذه الأمثلة وما يجرى مجراها تحذف الصفة. ويستطيع المتلقي أن يتبين الفرق الدلالي إذا تأمل الاختلافات التنغيمية بين الكلمات.

ويمكن للدارس أن يقف على إيماءات يراد بها التنغيم، نحو مصطلح: الحذف، والتطويح، والتطريح، والتفخيم، والتعظيم.

فالحذف قرينة يتطلبها أسلوب الكلام ومقامه، وهو ما يعرف بالسياق. كما أن التطويح من طوح الشيء إذا مد صوته ورفع. (45) وهذا يدل دلالة قاطعة على اختلاف درجات الصوت التي تتحكم في نغماته، وهو ما يسمى بالتنغيم. أما التطريح: من طرح الشيء إذا طوله ورفع وأعلاه. وما التفخيم إلا ظاهرة صوتية - كذلك - تأتي من حركات في الجهاز الصوتي تغير من شكل القراءات بالدرجة التي تعطي الصوت القيمة الصوتية العالية. (46)

ويلحظ من النص السابق أن ابن جني تحدث عن وظيفة التنغيم في التركيب، والتي تتمثل في التعبير عن دلالات مختلفة كالفرح والغضب والحزن ونحوها. وهذا يدل دلالة كافية على أن القدامى قد تفتنوا إلى ظاهرة التنغيم، إلا أن دراستهم تفتقر

إلى وضع ضوابط وأحكام بسبب اعتمادهم المنهج التعليقي الذي يعتمد على التأويل في الدراسات اللغوية والنحوية.

ويكفي هنا أن نسوق حكاية أوردها السيوطي، حيث يقول: "وحدثنا المرزبان عن إبراهيم بن إسماعيل الكاتب، قال: سأل اليزيدي الكسائي بحضرة الرشيد، فقال: انظر في هذا الشعر عيب؟ وأنشده.

ما رأينا حزنًا نفقر عنه البيض صفراً
لا يكون العيرُ مهرًا لا يكون المهرُ مهرُ

فقال الكسائي: قد أقوى الشاعر، فقال له اليزيدي: انظر فيه، فقال: أقوى، لا بد أن ينصب "المهر" الثاني على أنه خبر كان، فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض، وقال: أنا أبو محمد، الشعر صواب، إنما ابتداءً فقال: المهر مهر، فقال له يحيى بن خالد: أتكتني بحضرة أمير المؤمنين وتكشف رأسك؟ والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلك، فقال: لذة الغلبة أنستني من هذا ما أحسن". (47)

قد رأى الكسائي إقواء في رفع كلمة "مهر" الثانية، والصواب نصبها بعدها خبراً لـ "يكون" الناسخة. ولم ينتبه لما رآه اليزيدي في أن الشاعر استخدم الوقفة أو السكتة، أو التنغيم حين نطق جملة "لا يكون المهر"، فأخذت حينئذ مدا صوتياً، وصارت تحل معنى التأكيد. أما الإقواء فعييب نحوي، وغير موسيقي، لأن غاية الشاعر الحفاظ على النغمة الموسيقية، لا القوالب النحوية، وذلك مقبول للضرورة الشعرية، إذ يجوز في الشعر ما لا يجوز في غيره، كما يقال.

يتضح من هذا النص أن العربية كغيرها من اللغات في عصرها الأول تهمل علامات الوقف أو الترقيم اعتماداً على التنغيم، وربما أهملت ذكر الأدوات اعتماداً على التعليق بالنغمة، فكان من الممكن مثلاً أن يفهم معنى الدعاء من قولهم: "لا. وشفاك الله". دون استخدام أداة الوصل (الواو) اعتماداً على ما في تنغيم الجملة من وقفة واستئناف بعد الأداة "لا"، ومع ذلك لم يكن ثمة جواز من إسقاط هذه الواو بسبب عدم وجود ذلك الترقيم أو التنغيم في الكتابة، فكان من الضروري ذكر الأدوات لمنع لبس المعنى وغموضه.

ومما يتصل بقولهم: "لا وشفاك الله" ما أخطأ النحاة التوفيق في فهمه من قول جميل بن معمر:

لا. لا أبوحُ بحب بُقَّةٍ إنها أخذت علي موافقا وعهودا

فالشاعر قال "لا" جواباً لسؤال، ثم أعقب جوابه بوقفة استأنف الكلام. ولو اصطنع النحاة لأنفسهم علامات الوقف (الترقيم) لوجد القارئ نقطة للوقف بعد الأداة "لا" الأولى، ولأدركوا أن "لا" هذه جملة في حد ذاتها، يستحسن في تنغيمها أن نقف عليها لتمام المعنى، ولما اعتبروها أداة نفي مؤكداً تؤكد لفظياً بأداة في مثل صورتها.⁽⁴⁸⁾

وفي أسلوب الاستفهام نقف على شواهد عدة في الشعر العربي تدل على التنغيم. ففي قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا: تحبها قلت: بهرا؟! عدد النجم والحصى والتراب⁽⁴⁹⁾

فقد أغنى التنغيم الاستفهامي في قوله: "تحبها"؟ عن أداة الاستفهام (الهمزة) فحذفت، لأنه لا يجوز عند الحذف غيرها من أدوات الاستفهام.⁽⁵⁰⁾ وبقي معنى الاستفهام مفهوماً من السياق العام للخطاب.⁽⁵¹⁾

فهناك جمل ليس فيها أداة استفهام، ولكنها يجب أن تنطق بنغمة صوتية صاعدة، لتكون النغمة في موقع أداة الاستفهام وظيفية ومعنى، من ذلك قوله تعالى: "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك. تبتغي مرضاة أزواجك"⁽⁵²⁾. والمراد: أتبتغي مرضاة أزواجك. ولو قرأها قارئ بنغمة صوتية مستوية لأبعدها عن معناها المراد. فعلماء اللغة يفرقون بين الجملة التقريرية الخبرية والجملة الاستفهامية باحتواء الثانية على نغمة صوتية معينة وإن كان في صدرها أداة استفهام، كقوله تعالى: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً"⁽⁵³⁾. فالجملة تقرأ بنغمة صوتية مستوية، فيقول علماء التفسير، وعلماء اللغة أن الأداة "هل" في هذه الآية ليست للاستفهام، وإنما هي بمعنى "قد" التي تفيد التحقيق والتوكيد. ويقول الشاعر:

حتى إذا جَلَّ الظلامُ واختلط جاؤوا بمذق هل رأيت الذنبَ قط

فجملة: هل رأيت الذنبَ قط خبرية تقريرية، تعني: جاؤوا بمذق يشبه لون الذنب، وذلك لأن النغمة الصوتية تدل على معنى الأخبار لا معنى الاستفهام.

ومثل هذا كثير في كلام العرب وشعرهم. ولعل الاستخدام اللغوي المعاصر في مختلف أنحاء العالم العربي قد هدر استخدام أداة الاستفهام معتمداً على النغمة الصوتية التي بها يحول الجملة من خبرية إلى استفهامية إلى إنكارية إلى تعجبية...

فالتنغيم إذن يؤدي الوظيفة نفسها التي تؤديها أداة الاستفهام، إذ أنه في هذه الحالة له مدلول، وهو الاستفهام، ودال وهو ارتفاع الصوت (الضغط) على العنصر

الأخير من الكلمة، إلا أن الدال (التنغيم) لا يظهر في سلسلة الأصوات المنطوقة، لذلك يظل غائبا؛ لا يؤخذ بعين الاعتبار أثناء التقطيع.⁽⁵⁴⁾

وهكذا نجد أن النماذج التي تعبر عن أنماط التنغيم في اللغة العربية عديدة. والحقيقة أن العربية ليست وحدها التي تستخدم التنغيم، بل جل لغات العالم، لأنها تستعمل التنوعات الموسيقية في الكلام بطريقة تمييزية تفرق بين المعاني. وإلى اختلاف أنماط التنغيم يرجع الفضل في أننا يمكن أن نعبر عن كل عواطفنا ومشاعرنا. ويمكن في جل اللغات أن تغير الجملة من خبر إلى استفهام إلى تأكيد إلى تعجب إلى دهشة دون تغيير في شكل الكلمات المؤلفة للجملة، ومع تغيير فقط في نوع التنغيم.

الخاتمة

بعد الانتهاء من الدراسة، بقي أن نذكر أهم النتائج التي توصل إليها البحث، والتي نجملها على النحو الآتي:

- يلحظ كثرة المصطلحات اللسانية الدالة على النبر والتنغيم، ولذلك ينبغي توحيدها في الدراسات العربية المعاصرة. ولعل تميز اللغة العربية بالمرونة والطوعية يسهل عملية صياغة المصطلح الدقيق الواضح الدلالة، لذا ينبغي الاستمرار في إجراء البحوث التطبيقية في مجالات المصطلحات مع العمل على تكوين وعي جديد بأهمية البحث في الواقع اللغوي المعاصر، والتعرف على متطلبات التنمية اللغوية المستجدة.

- إن النبر والتنغيم لا ينفكان عن بعض، وإنهما من الفونيمات الصوتية، وإن الأداء الكلامي هو المتحكم فيهما، وعلى أساسهما يستطيع المتكلم أن يعبر عن ابتهاجه، وقلقه، وسخطه، وارتياحه. ومن ثم ينبغي أن ينظر الباحثون إلى هذه الظاهرة نظرة صوتية دلالية، تتجاوز أشكال الألفاظ والجمل.

- إن النبر والتنغيم قد أدركا بعامة عند اللغويين العرب القدامى، وإن لم يدرسوا دراسة تطبيقية، وذلك لوجود اصطلاحات تدل على ذلك، نحو: النبر، والضغط، والتنغيم، والوقفة، والسكته، والتطويح، والتطريح، والتفخيم، والتعظيم، والتطريب، والترنم.

- تمايز التراكيب النحوية عن بعضها بالتنغيم، ففهم الكثير من البنى التركيبية كالاستفهام والشرط والتعجب والمدح والذم والقسم والاستثناء.

- عدم توقف وظيفة التنغيم عند فهم بعض التراكيب النحوية، بل تتعداها إلى إحلال النغمة محل الأداة، على نحو ما نجده في بعض التراكيب كالشرط والتعجب والاستفهام.

المراجع

- (1) ينظر، دوسوسير، دروس في الألسنية العامة، عربه صالح القرماضي، وآخران، الدار العربية للكتاب، تونس، طرابلس، 1985، 48-58.
- (2) ينظر، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة وتعليق حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1985، ص 41، 42.
- (3) ينظر، رونالد ايلوار، مدخل إلى اللسانيات، ترجمة بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، 1980، ص 86.
- (4) ينظر المرجع السابق ص 86.
- (5) ينظر، عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 7، 1996، ص 106.
- (6) ينظر، ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1991، 380/5 (نبر)، والزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، (دت)، ص 443 (نبر)، وابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 3، 5، 189/1994 (نبر).
- (7) لسان العرب، 189/5 (نبر)
- (8) المصدر السابق، 189/5 (نبر)
- (9) ينظر تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1979، ص 16.
- (10) المرجع السابق، ص 160.
- (11) ينظر، رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 2، 1985، ص 106.
- (12) ينظر، أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، بيروت، القاهرة، 1991، ص 221.
- (13) ينظر، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 160، وكمال بشر، علم اللغة العام/ الأصوات، والمعارف بمصر، 1980، ص 162، وإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 4، 1971، ص 170.
- (14) ينظر، مناهج البحث في اللغة، ص 194، 195
- (15) ينظر، الرازي، مختار الصحاح، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، 1986، ص 279 (نغم)، وابن منظور، لسان العرب، 590/12 (نغم)، والزبيدي، تاج العروس، دار صادر، بيروت، (دت)، 83/9 (نغم).
- (16) ذكره ابن منظور في لسان العرب، 590/ 12 (نغم).
- (17) ينظر، ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2000، 546/5.

- (18) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 164، وينظر، رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث، ص 106.
- (19) ينظر، محمود السعران، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، (د-ت)، ص 192.
- (20) ينظر، المرجع السابق، ص، 192، 193.
- (21) ينظر، المرجع السابق، ص 192- 198.
- (22) ينظر، المرجع السابق، ص 193.
- (23) فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950، ص 109، 110.
- (24) نقلا عن الصحاح في اللغة والعلوم للجوهري، إعداد وتصنيف نديم مرعشلي، وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، ط 1، 591/1974 (نغم).
- (25) حاجي خليفة، كشف الضنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، 1902/2.
- (26) المصدر السابق، 1902/2.
- (27) صلاح الدين حسنين، المدخل إلى علم الأصوات، دار المعارف بمصر، ط 1، 1981، ص 17.
- (28) ينظر، أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص 221.
- (29) ينظر، المرجع السابق، 221.
- (30) ينظر، إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص 123.
- (31) ينظر، ماريوباي أميس، علم اللغة، ترجمة وتعليق، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط 2، 1983، ص 93.
- (32) ينظر، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 165، 164.
- (33) ينظر، تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 229.
- (34) سورة القيامة، الآيات، 7، 8، 9، 10.
- (35) العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الشروق، بيروت، 1983، ص 49.
- (36) التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، دار الرفاعي، الرياض، 1982، ص 46، 47.
- (37) لسان العرب، 189/5 (نبر).
- (38) الخصائص، حققه محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، (د-ت)، 123/3.
- (39) الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية للكتاب، 1977، 202/4.
- (40) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 234.
- (41) الكتاب، 220/2.
- (42) المصدر السابق، 231/2.

- (43) شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، 13/2.
- (44) الخصائص، 370/2، 371.
- (45) ينظر، بطرس البستاني، محيط المحيط، قاموس مطول للغة العربية، طبع في مطابع تيبو، بيروت، 1993، ص 559 (طوح).
- (46) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 90.
- (47) الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1985، 213، 214/6.
- (48) ينظر، تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 244.
- (49) ذكره سيبويه في الكتاب، 311/1.
- (50) ينظر، المبرد، المقتضب، تحقيق عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، 295/3.
- (51) ينظر، تمام حسان، اللغة العربية، معناها ومبناها، ص 227.
- (52) سورة التحريم، 1.
- (53) سورة الإنسان، 1.
- (54) André Martinet, *Eléments De Linguistique Générale*, Paris, Armand, Colin, 1980, P21.